الحرية الدينية
بين المسلمين وأهل الكتاب
تأصيل المفهوم ورد الشبهات

أ. د. خالد بن عبدالله القاسم
أستاذ العقيدة الإسلامية
كلية التربية - جامعة الملك سعود
المشرف على كرسي الأمير سلطان بن عبد العزيز
للدراسات الإسلامية المعاصرة

١٤٣٠هـ

ⓒ خالد بن عبدالله القاسم ، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، خالد بن عبدالله
الحرية الدينية بين الاسلام واهل الكتاب تاصيل المفهوم ورد الشبهات. /خالد بن عبدالله القاسم.- الرياض، ١٤٣٠هـ
٧٦ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٢ – ٣٥٦٣ – ٠٠ – ٦٠٣ – ٩٧٨
١- حرية القيدة ٢- الحرية في الاسلام أ- العنوان
ديوي ٩, ٢٥٧ ١٤٣٠/٦٦٦٧

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦٦٦٧
ردمك: ٢ – ٣٥٦٣ – ٠٠ – ٦٠٣ – ٩٧٨

الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ

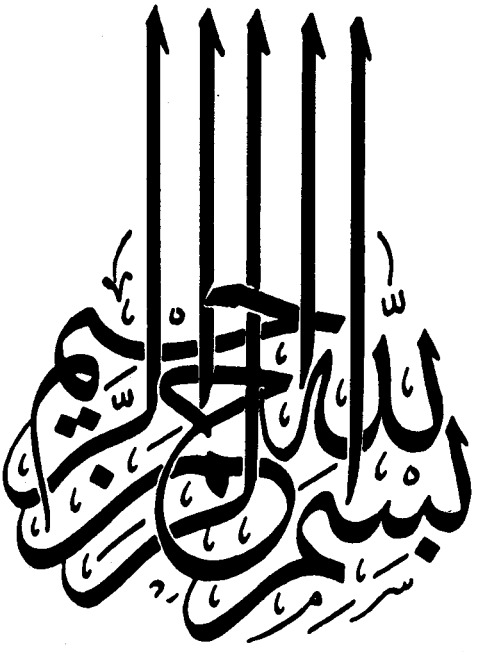
بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

الإسلام هو دين الله تعالى الذي اختاره للبشر أجمعين، وهو سبحانه أعلم بما يصلحهم في العاجل والآجل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]، ودين الإسلام هو دين الفطرة، والدين الوسط، المتضمن للعدل، المراعي لجوانب النفس البشرية، مع مراعاة حقوق الله تعالى وحقوق عباده، بل حتى حقوق الحيوان، كما أنه الدين التام الكامل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

فالإسلام كفل للإنسان حرية المعتقد والتدين، بعد أن أرشده بالوحي، وكرمه بالعقل، إنها حرية مسؤولة لها تبعاتها والتزاماتها، ولها حدودها وضوابطها، إنها حرية بناءة، لها آثارها وثمراتها، ومن ينظر في القرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم العطرة يجد وضوح هذا المبدأ تأصيلاً وممارسة، كما يلحظ سبق الإسلام في ذلك لكثير من الشرائع الوضعية، والمواثيق الدولية التي تعنى بحقوق الإنسان.

كما أثبت الإسلام بقوة في أمسه وحاضره، أنه دين الحرية والتسامح، ودين الرحمة والعدل، حرية منضبطة بضوابط الشرع وتسامح لا تضيع معه الحقوق، ورحمة في غير ذلة ومسكنة، وعدل في غير جور وتعدٍ.

وقد أوضحنا هذا المبدأ ضمن مباحث أربع، بينا فيها الحرية العامة في الإسلام، وأنها قائمة على الحرية المنضبطة التي يربى عليها المسلم، ثم تعرضنا لأهم

---

(١) سورة الملك، آية: ١٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣.

الشبهات المثارة حول هذا المبدأ والرد عليها، ثم بينا مدى حرية أهل الكتاب داخل الدولة الإسلامية سواء في حريتهم الشخصية، أو في عباداتهم، أو حرية إبداء الرأي والحوار مع المسلمين، من خلال ما ورد في الكتاب والسنة، معرجين على التطبيق العملي في التاريخ الإسلامي الزاهر مبرزاً تسامح المسلمين مع أهل الكتاب عندما كانوا تحت حكمهم وسلطانهم، ومدى تعصب أهل الكتاب في معاملة المسلمين واضطهادهم عندما كانت القوة لهم.

وإن إيضاح هذه الحقائق فرض على الأمة، وواجب عليها، لأن فيه بيان الحق، والدعوة إلى الإسلام، والذب عنه.

فنسأل الله تعالى أن يجعل ما كتبناه نصرة لدين الله، وذكرى للمؤمنين، وحجة على الجاحدين، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتنا يوم نلقاه، شاكرين الله تعالى على ما أنعم به وتكرم من خدمة دينه والدفاع عنه، بإظهار وسطيته وإبراز محاسنه.

والشكر موصول لسمو ولي العهد الأمير سلطان بن عبد العزيز وفقه الله على دعمه السخي للكرسي ومشروعاته، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

المشرف على كرسي الأمير سلطان

للدراسات الإسلامية المعاصرة

أ. د/ خالد بن عبدالله القاسم

الحريات في ظل النظام الإسلامي

تعريف الحرية:

الحرية في اللغة نقيض العبودية التي هي الرق، والحر ضد العبد لذا يقال حرره أي أعتقه[1].

وفي الاصطلاح يختلف تعريف الحرية ومدلولها باختلاف الزمان والمكان والمذهب السياسي، فليس هناك تعريف منضبط للحرية، وهذه المشكلة ليست في الحرية فحسب وإنما في كثير من المصطلحات المستخدمة بكثرة، وكثير من المصطلحات الواضحة جداً يصعب إيجاد تعريف لها، ومن هذه المصطلحات الحرية، فإن دلالة اللفظ واضحة لكل أحد، ولكن لفظ الحرية واسع جداً مع وضوحه، فهناك حرية سياسية، وحرية اقتصادية، وحرية فكرية، وحرية إبداء الرأي، وحرية دينية، وحرية علمية .. إلخ.

وقد تتداخل بعض هذه الأنواع وقد تتعارض، وقد تختلف الأفهام في معنى الحرية، كما في الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦٠م حيث كان جميع الأطراف المتحاربة تدعي أنها تحارب من أجل الحرية، فالولايات الشمالية كانت تعني بالحرية تحرير الزنوج في الولايات الجنوبية، كما أن في الولايات الجنوبية تعني بالحرية تحرير الولايات الشمالية من الحكومة الفيدرالية[2]، فكل يحارب من أجل الحرية حسب فهمه، يقول الرئيس الأمريكي لنكولن: إن الراعي يبعد الذئب عن الشاة، ولهذا تشكر الشاة الراعي لأنه محررها، بينما يستنكر الذئب تصرف الراعي باعتباره محطماً للحرية، وواضح أن الشاة والذئب ليسا متفقين على تعريف لكلمة

---

(١) ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب (١٨١/٤) دار صادر بيروت، (د. ت).

(٢) الشيشاني: عبدالوهاب عبدالعزيز، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ٤.

الحرية[1].

ومن أمثلة ذلك الثورة الفرنسية، فإنها نادت بشعار الحرية، وانطلاقاً من هذا الشعار قررت الثورة إلغاء الجمعيات بكافة صورها، وحصر أنشطتها، وذلك لتحرير الفرد من جميع الروابط التي من شأنها أن تعوق تكوين رأي عام، وقد تم بالفعل إلغاء النقابات والجمعيات التي أصبحت فيما بعد في فرنسا وغيرها أحد مظاهر الحرية وعناصرها الأساسية[2].

والحرية في النظام الرأسمالي تختلف عن الحرية في النظام الشيوعي أو الاشتراكي وهكذا ..

فليس هناك تعريف منضبط مجمع عليه للحرية، وأرى أن الحرية الممدوحة هي الحرية المقيدة بحرية المجتمع وقيمه وعدم إيذاء الآخرين، وفي المبحث القادم سأبين الحرية العامة في الإسلام.

---

(١) الشيشاني: عبدالوهاب عبدالعزيز، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة، ص ٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤.

المبحث الأول

الحرية العامة في الإسلام

الإسلام هو دين الحرية فلا يقيد الإنسان إلا لمصلحة أعظم، وذلك إذا تعارضت حرية الإنسان مع عبوديته لله، أو مع حرية الآخرين، أو أضرت به شخصياً، فلا يجعل أي قيد على الحرية إلا لأمر قد تبين ضرره.

كما أن المجتمع الإسلامي مأمور بتطبيق هذه الحرية بالمعني السابق والتي جاءت الشريعة بما يوافقها، ويتبين هذا من عدة أمور:

أولاً: حرية التفكير:

أن المسلم مطالب بإعمال عقله فيما ينفعه، كما حذر من الحجر عليه، فقد دعا الله الناس إلى النظر والتدبر في الكون وذلك لمعرفة الحق، وليكون المسلم على بصيرة من أمره، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

كما حذر من الحجر على العقل سواء بالغفلة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[3]. ويقول تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[4]. أو بتقليد الآباء من غير تدبر وبصيرة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا

(١) سورة يونس، آية: ١٠١.

(٢) سورة محمد، أية: ٢٤.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٢٠٥.

﴿يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[1].

والآيات القرآنية التي تذكر العقل المهتدي بالمدح والثناء عديدة جداً، وكذا الآيات التي تنبه على أهمية إعماله، وهذا ما لا تجده في الكتب السابقة، يقول العقاد: (ففي كتب الإديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل وإلى التمييز، ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة، وقد يلمح فيه القارئ بعض الأحايين شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والإنكار، ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه على وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله[2]، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه)[3].

ومن اهتمام القرآن الكريم بالعقل والإقناع من غير إكراه اهتمامه بالحجة والبرهان، فنجد أن القرآن الكريم يقيم الأدلة المتنوعة على المسائل التي يطلب من الناس الإيمان بها، وقد قسم العلماء أصول الدين إلى قسمين: مسائل وهي ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به، والقسم الثاني وهو الدلائل العقلية لما يحتاج الناس إليه من المسائل ، يقول ابن تيمية : (فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين والمتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق، فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر، ويجعلون ما يبنى عليه صدق المخبر معقولات محضة، فقد غلطوا في ذلك غلطاً عظيماً، بل ضلوا ضلالاً مبيناً في ظنهم: أن دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، بل الأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها – أهل

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٠.

(٢) تحكيم العقل على إطلاقه غير صحيح لقصور العقل، وإنما يحكم وفق حدود الشريعة، ولعل هذا مراد العقاد.

(٣) العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص ٧.

العلم والإيمان – من أن الله سبحانه وتعالى بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره)[1] ومن تدبر القرآن وجد الأدلة العقلية المقامة على توحيد الله، وعلى البعث، وعلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى صحة القرآن،وعلى مسائل كثيرة، كما نجد في القرآن الرد على أصناف المنحرفين بأدلة عقلية محضة.

كما أنه يعتمد في حجاجه وتحدي خصومه على طلب البرهان ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ ﴾[2]. (ولا يوجد معنى لحرية الفكر أوسع ولا أجل من أن تطلب من مناظرك – مهما كان شأنه – أن يجيئك ببرهانه على صدق دعواه)[3] والآيات المشابهة كثيرة منها: ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[4]، ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[5]، فالمؤمن مطالب بالتفكير واتباع الحجة والبرهان من غير حجر على عقله أو تقليد بغير دليل، وقد لاحظ هذا بعض النصارى من خلال تدبرهم لآيات القرآن الكريم، يقول أحدهم تعليقاً على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[6]، (يكفيك أيها المسيحي العربي المنصف ما يمكن أن تدركه من أسرار الآية الكريمة التي صدرت بها مقالي هذا، رغم كون ما أوتيه الإنسان من لوازم الإدراك إنما هو عقل مظلم خابي الشعاع، فهي وحدها تعلن عن حرية الإسلام وحرية تابعيه، وتطلق لهم عنان التفكير في الكون بجميع نواحيه، وتترك لهم حرية

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٩٦/٣).

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٢٠.

(٣) عرجون: محمد الصادق، حرية الفكر في الإسلام، مطبعة الأزهر، القاهرة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، ص ١٧.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٤٣.

(٥) سورة الأحقاف، آية: ٤.

(٦) سورة الزمر، آية: ١٨.

السماع لكل الدعاة مهما اختلفت المقاصد وتباينت الأنواع[1]، لأن المفروض من العقلاء أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولو كان هنا ما هو أحسن من القرآن – قول الله الكريم – لما حرض على استماع غيره، فينصرف الناس عنه إلى ضده كما هو الحاصل عن هيئات الأكليروس التي تحرم قراءة كتب غيرهم الدينية، كما تحظر الاستماع لهم، وما ذلك إلا خشية المقارنة فيظهر للمقارن أن هناك قولاً أحسن من قولهم فيتبعه، وفي ذلك من الحجر على حرية الأفكار ما فيه، ومن الإكراه في الدين والاعتقاد ما به، ليمنع نظر المتدين في معتقده ليعرف صوابه من عواره، إذا فالإسلام دين الحرية، والدين المسيحي بعد أن لبس ثوبه الأفرنجي أصبح دين العبودية، وما أسخف إنساناً وهبه الله الحرية فباعها بلا ثمن)[2]..

ثانياً: الشورى وحرية الرأي:

يحث الإسلام على الشورى، وفيها حرية إبداء الرأي واحترامه في كافة الأمور الاجتهادية، وهذا عام في أمور العلم والسياسة والحرية والاقتصاد، وحتى داخل القبيلة والأسرة، فلقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو أخير الناس عقلاً، وأحكمهم رأياً والوحي ينزل عليه أن يستمع إلى آراء غيره، بل أن يطلبها منهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[3]، مما يدل على أنه لا يجوز لأحد من بعده أن يترك هذا المبدأ العظيم لأي مصلحة كانت، وخاصة أن هذه الآية في ظروف غزوة أحد،وكان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشاورة لأصحابه،وكان ينادى يوم بدر: (أشيروا علي أيها

---

(١) هذا الكلام ليس صحيحاً على إطلاقه فهناك أمور يحرم الاستماع لها كالاستماع إلى الذين يتخذون آيات الله هزواً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ لسورة الأنعام، آية: ٦٨.

(٢) قبرصي: خليل إسكندر، دعوة نصارى العرب على الدخول في الإسلام، المطبعة السلفية، القاهرة، (د. ت) ص ٨ – ٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

الناس)[1] ومشاورتهم يوم أحد الصحابة لما قدم العدو إليهم لمقابلتهم أيخرج؟ أم يتحصنون في المدينة؟ وكان رأيه صلى الله عليه وسلم ألا يخرج من المدينة، وأن يتحصنوا فيها، وكان رأي كثيرين من الصحابة الخروج، فنزل عن رأيه إلى رأيهم[2]، وفي صلح الحديبية أمر الصحابة بالنحر والحلق فلم يفعل أحد منهم ذلك، فدخل صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وذكر لها ما لقي من الناس، فأشارت إليه

---

(١) ابن هشام: أبي محمد عبدالملك بن هشام العافري، السيرة النبوية، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر (د. ت) قدم لها وعلق عليها عبدالرؤوف سعد، وبعضها موجود في صحيح البخاري (١/١٨٨).
هذا الحديث بهذا اللفظ رواه ابن هشام في "السيرة": (١/٦١٥) عن ابن إسحق بسند صحيح إلى ابن عباس، وقد صرح ابن إسحق بالسماع. ورواه الطبراني من حديث أبي أيوب الأنصاري، وقال الهيثمي كما في "المجمع" (٦/٧٤): وإسناده حسن. وله شواهد كثيرة منها عند البخاري في كتاب المغازي، باب قوله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم» (٤/١٥٣١، برقم: ٣٧٣٦)، وكذلك عند أحمد في "المسند" برقم:(٦/٢٢٨، برقم: ٣٦٩٨)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، والحاكم في :المستدرك": (٣/ ٣٤٩)، وقد صححه ووافقه عليه الذهبي. وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شاور أصحابه كذلك في المدينة كما رواه مسلم، في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، (٣/١٤٠٤، برقم: ١٧٧٩)، ورواه الإمام أحمد في "المسند" برقم: ٢١/ ٢٦٢، برقم: ١٣٧٠٣) وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم. لذا فقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات بقوله: "ويمكن الجمع بأن النبي صلى الله عليه وسلم استشارهم في غزوة بدر مرتين. الأولى: وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان، وذلك بين في رواية مسلم ولفظه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان»، والثانية: كانت بعد أن خرج".

(٢) أخرج هذا الحديث الإمام أحمد في "المسند": (٢٣/٩٩، برقم: ١٤٧٨٧)، وأورد بعضه البخاري معلقًا كما في "الصحيح مع الفتح": (١٣/٢٨٤). وكذلك أخرجه الدارمي: (٢/ ١٢٩-١٣٠) فالإسناد صحيح على شرط مسلم إلا أن أبا زبير لم يصرح بالسماع عن جابر، ولكن يشهد له حديث ابن عباس عند الحاكم: (٢/١٢٨ -١٢٩)، وعنه البيهقي في "السنن": ٧/٤١، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن. ويشهد لقصة الرؤيا حديث أبي موسى الأشعري عند البخاري (٤/١٤٩٨، برقم: ٣٨٥٣)، ومسلم (٤/ ١٧٧٩، برقم: ٢٢٧٢). وقد رواه مرسلا عبدالرزاق الصنعاني في "المصنف": (٥/ ٣٦٤) عن عروة بن الزبير، والبيهقي في "دلائل النبوة": (٣/ ٢٠٨) عن الزهري وموسى بن عقبة.فالحديث كما قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

أن ينحر ويحلق، فإذا رآه الناس فعل فعلوا، فأخذ برأيها وكان نعم الرأي[1].

يقول ابن القيم في فوائد هذه القصة: (ومنها استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه استخراجاً لوجهة الرأي، واستطابة لنفوسهم وأمناً لعتبهم وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض، وامتثالاً لأمر الرب)[2].

والشورى من سمة المؤمنين حكاماً كانوا أو محكومين، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3] فلا استبداد بالرأي، ولا كبت له، وهذه الآية تجعل أمرهم شورى، وهي آية مكية قبل قيام الدولة، فالمقصود حياتهم كلها شورى، والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة.

ثالثاً: عدم الإكراه في الدين:

الدعوة إلى الإسلام لا يمارس فيها أي نوع من أنواع الإكراه، بل هي كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[4]، فالدعوة بيان للحق بحكمة وموعظة ومجادلة لا قسر فيها ولا إكراه، كيف وقد قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[5]، وقد ورد في تفسير هذه الآية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعجوز نصرانية أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق، قالت: أنا عجوز كبيرة والموت إلي قريب! فقال عمر: اللهم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب: في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (٢/ ٩٧٨، برقم: ٢٥٨١.)

(٢) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خيرالعباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، (٣٠٢/٣).

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

اشهد، وتلا ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً)[2]، فبيان الحق كفيل باستجابة طالبه من غير إكراه، بل إن المشرك المحارب إذا استجار المؤمن فله أن يجيره إلى أن يسمعه القرآن ويبين له الحق، فإن لم يستجب فلا إكراه ولا ضغوط وإنما يعلمه بأن عليه المغادرة وله الأمان إلى أن يصل إلى مأمنه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[3] (والإسلام وهو أرقى تصور للوجود والحياة وأقوم منهج للمجتمع الإسلامي بلا مراء هو الذي ينادي بأنه لا إكراه في الدين، وهو الذي بين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي

---

(١) أورده القرطبي عند تفسير قوله تعالى: «لا إكراه في الدين»، (٣/٢٨٠)، وذكره أيضًا مبسوطًا بذكر قصة الحديث في موضع آخر من تفسيره: (١٣/ ٤٤). روى هذا الأثر عبد الرزاق الصنعاني في "المصنف": (١/٧٨ ، برقم: ٢٥٤)، والدارقطني في "سننه": (١/٣٢)، وابن النحاس في "الناسخ والمنسوخ": (١/٢٥٩). وكلهم عن طريق سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم عن أبيه. ويقول الحافظ ابن حجر في "تغليق التعليق" (٢/ ١٣١): "وهذا إسناد ظاهره الصحة، وهو منقطع". وانقطاعه من جهة أن سفيان بن عيينة أنه لم يسمع الحديث من زيد بن أسلم وقد تبين ذلك من روايات أخرى عند البيهقي في "السنن الكبرى": (١/٣٢، برقم: ١٢٨)، و"معرفة السنن والآثار" له: (١/١٤٨، برقم:٤١). والدارقطني في "سننه": (١/٣٢). إلا أنه ثبتت الواسطة بينهما كما بين ذلك الحافظ في "الفتح" (١/٢٩٩) : لذا أورد ه الإمام البخاري في صحيحه معلقًا مجزوما حيث قال: " باب: وضوء الرجل مع امراته وفضل وضوءالمراة وتوضأ عمر بالحميم، ومن بيت نصرانية." فالأثر ثابت صحيح.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٦٨٢).

(٣) سورة التوبة، آية: ٦.

تفرض فرضاً بسلطان الدولة ولا يسمح لمن خالفها بالحياة)[1]..

(١) قطب، سيد في ظلال القرآن (٢٩١/١).

المبحث الثاني

شبه من طعن في الحرية الإسلامية

وهناك أمور لابد من بيانها، فقد يظن أنها تتعارض مع الحرية، ومن ذلك: الشبهة الأولى: قد يقال أن عبادة الله والالتزام بأوامره فيها تقييد للحرية.

والجواب عن ذلك: أن هذا لا يعارض الحرية وذلك لما يلي:

أولاً: إن الإنسان مفطور على عبوديته لله، فهو يعبد الله اختياراً واقتناعاً، كما أن عبودية الإنسان لخالقه فيها التحرر من عبودية ما سواه، ومن التعلق بغير الله، ومن أعرض عن عبادة الله فإنه ولابد أن يقع في عبودية غيره من عبودية هواه أو الشيطان أو عبودية البشر، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾[2]. ومن أطاع الشيطان في معصية الله فهي من عبوديته، ومن أعرض عن الله أغواه الشيطان لا محالة، كما قال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[3]. وقد رد الله عليه ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[4]. وقد جاء الإسلام لتحرير الناس من أي عبودية لغير الله تعالى، قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[5].

ومن عبدالله وأطاعه، فإنه يكون مستريح النفس، ومطمئن البال، ومن

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٣.

(٢) سورة مريم، آية: ٤٤.

(٣) سورة ص، آية: ٨٣.

(٤) سورة الحجر، آية: ٤٢.

(٥) أورده ابن جرير في "تاريخه": (٢/٤٠١) وابن كثير في "البداية والنهاية": (٧/ ٣٩).

أعرض عن الله فإن له الضيق في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1].

ثانياً: أن المسلم ليقبل على هذا الدين وما فيه من شعائر بقناعة كاملة، وبرغبة صادقة من نفسه، وذلك لأن البراهين والآيات قامت على صحته وأنه الحق الذي لا مرية فيه، فمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم وآياته الكثيرة الدالة على صدقه متواترة، وأعظم معجزاته وهو القرآن موجود بين يديه، وهذه الشريعة بما فيها من محاسن عظيمة تدل على كمالها وعلى أنها من عند الله العزيز الحكيم قد حفظت ولم تندرس كما اندرس غيرها، وما من دين إلى وقد انقضت معجزاته وذهبت إلا هذا الدين بقين معجزاته العظيمة محفوظة منقولة بالتواتر.

فهو يقبل على عبادة الله الخالق الرازق المحيي المميت الذي بيده كل شيء، محبة له وشكراً له ورغبة فيما عنده وخوفاً منه.

ثالثاً: إن هذه الشريعة بما فيها من تقييدات إنما هي لمصلحة العبد، وقد جاءت النصوص بإحلال النافع وتحريم الضار، ورفع الحرج كقوله تعالى واصفاً النبي صلى الله عليه وسلم ومبيناً صفته الموجودة في الوارة والإنجيل ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[2]. فما جاء الإسلام إلا بالنافع الطيب، وما حرم إلا الخبيث الضار – سواء ظهرت حكمته للمكلفين وقت نزول الوحي أو لم تظهر – ويعجز أي أحد أن يأتي بأمر قام الدليل على فائدته وقد حرمه الإسلام، أو بأمر تبين ضرره وقد أوجبه الإسلام؛ كيف وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ

(١) سورة طه، آية: ١٢٣-١٢٤.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.